

5

قصص الصحابية

الأم
والفارس الشهيد

سلوى العناني

دار اللطائف

الأم والفارس التنهيد

(اسماء بنت أبي بكر)

[إن لكِ بنطاقك هذا نطاقين في الجنة]

صدق يقول الله ﷻ

هذا مشهّدٌ لن ينساه التاريخُ ، لأنه مشهّدٌ يرتفعُ بالشاعرِ
الإنسانيةِ إلى مستوىٍ يصعبُ تصديقهُ .. فهو مشهّدٌ للولاءِ
للفكرةِ، وللعقيدةِ ، ومشهّدٌ للنضحيةِ ، والشجاعةِ ، وقسوةِ
الإنسانِ اللانهائيةِ على العطاءِ ..

المكانُ : بيتٌ بسيطٌ من بيوتِ مكة .

الزمانُ : الثلاثةُ .. السابعُ عشرَ من جمادى الأولى سنة

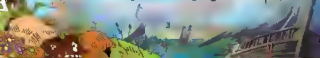
73 هـ .

أبطالُ المشهّدِ : رجلٌ جاورَ السبعين - وأنه التي شارفتْ

على الموتِ ..

الابنُ يرتدّي ثيابَ الحربِ ، ويسعدُ للخروجِ إلى معركةِ

يعلّمُ سبهاً أنه لن يعودَ بينها ، فقد تفرّقَ عنه الصحابُ ،



والوليد والأهل : أما الأم فقد كُفَّ بصرُها ، وظهرت
عليها علاماتُ السنين إلا أن نوراً خفياً كان ينيرُ وجهها ،
نصية كلماتها ..

دخلَ الابنُ على أمه يقبلُ يدها ، ويسألها المشورة .. فلماذا
هو فاعلٌ ؟ .. هل يواصلُ حربه ؟ .. وكفةُ الخصمِ راجحةٌ لا
محالة .. فهمُ ألفوفُ مؤلفةٌ ، بينما لم يتبقَّ حوله إلا فقرٌ قليلٌ ..
أم يُستلمُ هؤلاءِ الخصومَ ، وقد عرضوا عليه أمته ، وسعادته
مقابلَ تخليه عن قضيته ؟

فلماذا تقولُ الأمُ في هذه اللحظة .. وهذا ولدها مقبلٌ
على موتٍ محققٍ ؟

قالتُ الأمُ : (والله يا بني أنتَ أعلمُ بنفسيك .. إن كنتَ
تعلمُ أنك على حقٍّ فامضِ له .. فقد قُتلَ عليه أصحابُك ،
وإن كنتَ إنما أردتَ الدنيا فبئسَ العبدُ أنتَ .. أهلكَت
نفسك ، ومن قُتلَ معك ، وإن قلتَ إني على حقٍّ ، فلَمَّا
وَهَنَ أصحابي ضَعُفْتُ .. فهذا ليسَ بفعلِ الأحرارِ ، ولا
أهلِ الدين ..) ، والحنى الفارسُ وقَبِلَ رأسَ أمه ، وأمسك

كَفَّهَا بَيْنَ كَفَّيْهِ ، وَقَالَ : (هَذَا رَأْيِي لَكُنِّي أَحْيَيْتُ إِنْ أَعْلِمَ
رَأْيَكَ ، فَزِدْنِي بِصِيرَةٍ .. فَانْظُرِي يَا أُمُّهُ إِنْهُ مَقْتُولٌ مِنْ يَوْمِي
هَذَا .. فَلَا يَشْتَدُّ حَزْنُكَ لِأَمْرِ اللَّهِ .. فَإِنَّ ابْنَكَ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِنْتِهَانِ
مَنْكَرٍ ، وَلَا عَمَلَ بِفَلَحْشَةٍ ، وَلَمْ يَجْزُرْ فِي حَكْمٍ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ
ظُلْمَ مُسْلِمٍ ، وَلَا مُعَاهِدٍ) .

ثُمَّ اخْتَشَقَ صَوْتُ الْفَارِسِ ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ،
وَقَالَ : "اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَفْسُلُ هَذَا تَرْكِيَةً لِنَفْسِي ، وَلَكِنْ
تَعَزِيَةً لَأُمِّي ، تَسْلُو عَنِّي" .

حَيَّتْ أُمُّ دَعْوَعَهَا ، وَصَمَّتْ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَتْ : (إِنِّي
لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ عِزَامِي فِيكَ حَسَنًا ، فَلَخْرُجْ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى
مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ أَمْرُكَ) .

عَادَ الْفَارِسُ ، فَفَلَّ يَدِي أُمِّهِ ، وَرَأْسَهَا ، ثُمَّ عَانَقَهَا .
أَمَّا الْأُمُّ فَقَدْ رَفَعَتْ كَفَّيْهَا ، ضَارِعَةً وَهِيَ تَسْرُدُ : "اللَّهُمَّ
ارْحَمْ طَوْلَ قِيَامِهِ فِي اللَّيْلِ وَظِلْمَهُ فِي الْمَهَاجِرِ ، وَبُؤْسَ بَابِهِ ،

وَبُؤْسَ نَجْوَاهُ .
اللَّهُمَّ قَدْ أَسْلَمْتَ لِأَمْرِكَ قِيَمَهُ .. وَرَضِيَتْ بِمَا فَضَيْتَ .

فَاتَّبَعَنِي فِي وَكَلَنِي عَبْدُ اللَّهِ ، ثَوَابَ الشَّاكِرِينَ الصَّابِرِينَ "

التفت الفارصُ إلى أمه وقل :

(إني أعتابُ أنْ يُمَثَّلَ بي بعد موتي) .

فرفعت الأم رأسها في شموخ وقالت :

(إن الشاة لا يضرها سلخُها بعد ذُبْحِها) .

ربما ظن القارئ أن هذا مشهدٌ مسرحيٌّ مؤثّرٌ .. لكنه

ليس كذلك .. إنما هو مشهدٌ حقيقيٌّ سجله التاريخُ لطلّعين

عظيمين.

الأم هي أسماء بنتُ أبي بكرٍ بنِ أبي قحافة رضي الله

عنها.

أما الابنُ فهو عبدُ الله بنُ الزبير بن العوام ،

كانت (أسماء) قد أسلمت مع باقي أفراد أسرتها بعد

إسلام أبيها أبي بكرٍ الصديق - أول من أسلم من الرجال -

- وكانت أسماء في هذا الوقت حبيبةً في حواري السابعة

عشرة من عمرها وبعد سنوات من إسلامها تزوجت

الصحابيَّ الجليلَ الزبير بنَ العوام ابنَ السيدة صفيةَ عمة

النبي الكريم ، وابن شقيق السيدة خديجة زوج النبي عليه السلام ، وأحد السبعة الأوائل الذين دخلوا في دين الله قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره .. وهو الذي قل عنه رسول الله " إن لكل نبي حواريًا ، وحواري الزبير بن العوام " .

وعاشت السيدة (اسماء) مع زوجها (الزبير) في مكة شهرًا قليلًا حتى أذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى المدينة في مجموعات صغيرة .. وفي إحدى هذه المجموعات غادر (الزبير بن العوام) مكة إلى المدينة مهاجرًا في سبيل الله ، وترك زوجته (اسماء) في شهر حملها الأخيرة . وأذن الله للرسول بالهجرة ، فذهب إلى بيت صديقه (أبي بكر) الذي كان جاهزًا للرحيل ، ينتظر إذن النبي - فأنبهه أن الساعة قد حانت ، وأنه يمكنهما الرحيل .

غادر (أبو بكر) بيته مهاجرًا مع النبي ، وقد حمل معه كل ما كان له من مال (خمسة آلاف درهم) ، وترك وراءه زوجته وابنتيه عائشة وأسامة ، وولده عبد الله بن أبي بكر .

أَجَبَهُ النَّبِيُّ، وَصَاحِبَهُ الْكَرِيمُ إِلَى (غَلِيٍّ ثَوْرٍ) حَيْثُ قَفَصَهَا
ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَزُورُهُمَا كُلَّ مَسَاءٍ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ)
مَلَا مَعَهُ أَتْبَالُ قُرَيْشٍ، وَبَعْضُ الطَّعَامِ، وَيتبعه مولاهم
(عَلَمَرُ بْنُ قَهِيرَةَ) الَّذِي كَانَ يَرعى إِبِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَيَحْلُبُ
الشَّيْءَ، وَيُسْقِي النَّبِيَّ وَصَاحِبَهُ لَبَنَهَا، ثُمَّ يَتَّبِعُ عَبْدُ اللَّهِ فِي
طَرِيقِ الْعُودَةِ، فَتَخْفَى الْأَغْنَامُ آثَارَ الْأَقْدَامِ الْبَشَرِيَّةِ، إِسْعَاءًا
فِي التَّمْوِيدِ ..

وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّلَاثَةِ قَامَتْ (أَسْمَاءُ) - رَغِمَ ثَقُلُ حَمْلُهَا
فَاعْدَتْ زَادَ السَّفَرِ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَصَاحِبِهِ .. فَكَيْفَ تَصَعُّ
الْمَلَّةَ وَالطَّعَامَ عَلَى ظَهْرِ الرَّاحِلَةِ؟ ..

اسْتَلْزَمَتْ (أَسْمَاءُ) قَلِيلًا ثُمَّ فَكَّتْ نَظَاقَهَا، وَشَقَّتْهُ فَرَبَطَتْ
وَسَطَهَا بِنِصْفِهِ، وَعَلَّقَتْ طَعَامَ الْهَاجِرَيْنِ وَشِرَائِيَهُمَا فِي
النِّصْفِ الْآخَرِ ..

وَلَمَّا رَأَى الرَّسُولُ مَا صَنَعَتْ (أَسْمَاءُ) ابْتَسَمَ لَذِكَايْنِهَا،
وَعَطَّاهُمَا، وَبَشَّرَهَا قَائِلًا :

"إِنَّ لَكَ بِنِظَاقِكَ هَذَا نِظَاقَيْنِ فِي الْجَنَّةِ"

ومن يومها سُمِّيَتْ (أحملة) بذاتِ النيطقين^(١).

وبأبي (أبو قحافة) والدُ (أبي بكر) - وكان لم يدخل
الإسلام بعدُ - ليزورَ أحفاده بعد أن عَلِمَ بهجرة ابنه مع
الرسولِ إلى المدينة. وسَلَّمهم عما تركه لهم أبوه من ملٍّ ..
وتسرعُ أسماءُ ، فتجمعُ بعضَ الحصى ، وتضعه حيثُ كان
أبوها يحفظُ ماله ، وتخطيه ببعضِ الشاي ثم تأتي بحذما -
وكان كقبْضا - فتضعُ يده فوقَ الحصى ، فيَحْسِبُه الشيخُ
مالا ..

لقد عَزَّ على أسماءُ أن يَشْمَتَ جذما فيهم وهو الذي
قل : (والله إني لأراكم قد فُجِعتم بماله مع نفسه ..) .
وكان ذكْلُ أحملة ، وسرعةٌ بذيتها أقوى من شائِئِ هذا
الجَدِّ .. فأقنعتهُ بأن والذمَّ قد تركَ لهم خيرا كثيرا - وهذا
حقٌ .. فقد تركَ لهم رِضا الله ورسوله ..

وأبَدَ الله نبيه ، وصاحبه ، وأعانتهما على سَفَرِهما وَوَصَّلا
سائِلينَ إلى المدينة ..

(١) النطق : حرام تَرْطُطُ المرأةُ على وسطها تستد به ظهرها وترفع به أطراف ثوبها

ولما استقرَّ بهما المقامُ أرسل أبو بكر إلى ولد أن يأتي ،
ومعه اخته (اسماءُ) ، و(عائشةُ) وزوجةُ أبيه (أم رومان)
وتحمل اسماءُ مشقةَ الرحيلِ وقد اوشكتُ أن تنسِمَ أيامَ
حملها .. با لها من رحلةٍ شاقَّةٍ يعلمُ اللهَ وحدهُ كمُ عانتُ
(اسماءُ) أثناءها .

وفي (قباء) على مشارفِ المدينةِ المنورةِ نزلتُ (اسماءُ)
حيث جدها المخاضُ .. ورزقها اللهَ بصبيٍّ جميلٍ ، وكُم كانت
فرحةُ المسلمين في المدينةِ بهذا الوليدِ فأمه هي (اسماءُ بنتُ
أبي بكرٍ) ، وأبوه (الزبيرُ بنُ العوامِ) أحدُ السبعةِ الأوائلِ
الذين سارَعوا إلى الإسلامِ .

يا له من طفلٍ كريمٍ النَّسَبِ ..

وكانت ولادةُ هذا الطفلِ بالمدينةِ رُقاَ حاصها على اليهودِ
الذين اشاعوا أنهم سَحَرُوا نساءَ المسلمين ، ليُضَيِّسَ
بالعقمِ ، فلا يُؤَلَّدَ لَهُنَّ طفلٌ بالمدينةِ ..

وحمل المسلمون الطفلَ إلى الرسولِ ، فباركهُ ، وسماه (عبدَ
الله) .. عبدُ الله بنُ الزبيرِ بنِ العوامِ .. وبعدَ عبدِ الله رزقتُ

أحملة بالنين : عروّة ، والمنفر ، وعاصم ، والمهاجر ..
وبالبنات : عائشة ، وأم الحسن ، وخديجة ..

كان الزبير زوج أحملة فقيراً لا يملك من متاع الدنيا إلا
فرسه .. فكان على أحملة أن تقوم بكل واجبات الزوجة
والأم .. ترعى ابنها وزوجها ، وتعلم الفرس ، وتسقيه ،
وتعجن العجين ..

تروي (أحملة) عن نفسها .. "لم أكن أحسن الخبز ..
لكنني كنت أخبز لي جارات من الأنصار " .

يا لها من إنسانة بسيطة صريحة .. لم تنجل من الاعتراف
بأنها لم تكن تكن (الخبز) .. وبها من صورة رائعة من
صور التكافل والتعاون . فما من نساء الأنصار من
حاراتها يساعدها على ما لم تكن تفقه ..

ولما عرف الأب (أبو بكر) بما تعانيه ابنته أرسل لها خادماً
تساعدها ..

لكن حل الزبير لم يستمر طويلاً على هذا ، فقد شارك
في الفتح حمله والغزوات ، وذل نصيبه من الغنائم ، وفتح

الله عليه وآله (اسماء) استراحت بعد هذا .. فهي لم تخلق
لهذا التعذيب.. لكنها تحملت مسئوليتها كزوجة ، وأم على
الحسن وجهه .

ونقلب الأوراق ، ونقرأ عن (اسماء) صفحات مشرقة ..
فقد كانت من أفقه صحابيات رسول الله صلى الله عليه
وسلم - أخذت عن أبيها حسن الخلق ، ورائع السلوك ،
وصحيح التقوى.. وهي نموذج في الكرم ، والجود ، والذكاء ،
والشجاعة..

ومن خلال شفيقتها (عائشة) أم المؤمنين تعلمت (اسماء)
الكثير عن فقه دينها .. وكانت تنقل ما تحفل أن تنطق به
أمام الرسول إلى (عائشة) التي تأتيها بالإجابة .. وأصبحت
(اسماء) موسوعة في السنة النبوية خلاصة في أمور (النساء) ..
وكانت راوية للحديث ، أخذ عنها كثير من الرواة ، أهل
الثقة .

ونغضي الأيام بالكريمة بنت الكريم (اسماء بنت أبي
بكر) وتشهد وفاة النبي ، ثم وفاة أبي بكر ، ومن بعده

عمر ، ثم عثمان ، وعلي ، وتنتقل لنعيش مع ابنها البكر
(عبد الله بن الزبير بن العوام) الذي اختاره المسلمون
خليفة لهم بعد وفاة يزيد بن معاوية .. وتُقلَّ عبدُ الله مقرَّ
الخلافة إلى مكة المكرمة بعد أن كان يزيد بن معاوية قد
جعلَ هذه العاصمة في دمشق إبان خلافته ، وتُشَقَّ عصا
المسلمين. فيها هو (مروان بن الحكم) يعلنُ نفسه خليفةً
على الشام .. ويخلفه ابنه (عبدُ الملك بن مروان) ويعلمون
رفضهم لخلافة (عبد الله بن الزبير) .. وتوالي الحروب .

ويتقسم المسلمون .. ويتبع بعضهم خليفة دمشق ويبيع
الآخرون خليفة مكة ، وتُدورُ المعارك ، وتتداخلُ المؤامراتُ
لتكونَ ضدَّ الشجاعة .. وتتعدَّدُ هزائمُ (عبد الله بن الزبير)
حتى يأتيَ اليومُ الخامسُ .

الثلاثة .. السابعُ عشرَ مِنُ جمادى الأولى سنة 73 هـ
هذا اليومُ الذي شهدَ مَضَرَعُ عبدِ الله بنِ الزبيرِ بعد
معركة فصيحة ضيِّدُ (الحجاج بن يوسف الثقفي) الذي
قَتَلَهُ ، وأُغْلِقَ نَجْشَتُهُ في العراءِ ، ثم فصلَ رأسه ، ونُعثَ بها

إلى مولاة (عبد الملك بن مروان) .

ويقف الحجاج (قَاتِلُ عَبْدِ اللَّهِ) أمامَ أُمِّهِ (أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ)

وَلَا اسْتَرْضَاهَا .. فَمَاذَا تَقُولُ هَذِهِ الْأُمُّ الْعَظِيمَةُ؟

قَالَتْ (اسْمَاءُ) : " لَقَدْ أَفْسَدْتُ عَلَى ابْنِي دُنْيَاهُ وَأَفْسَدَ هُرُ

عَلَيْكَ آخِرَتُكَ - وَلَا ضَرَّ أَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ عَلَى بَدَنِكَ (شَهِيدًا)

فَقَدْ أَهْمَيْتُ رَأْسُ بَحْبِ بْنِ زَكْرِيَّا إِلَى بَغْيٍ مِنْ بَغْيِيَا بَنِي

إِسْرَائِيلَ " .

يَا لِرُوعَةِ التَّشْبِيهِ .. لَقَدْ أَهْمَيْتُ رَأْسُ ابْنِيهَا (الْوَرَعُ التَّنْفِي

الْمُصَالِحُ) إِلَى (عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ) كَمَا أَهْمَيْتُ رَأْسُ النَّبِيِّ

(بَحْبِ بْنِ زَكْرِيَّا) إِلَى عَاهِرَةِ ضَائِعَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ هِيَ

(سَالُومِي) .

هَكَذَا احْتَقَرَتْ (اسْمَاءُ) هَذَا الْمَطَاغِبَةَ (الحجاج بن يوسف

التَّنْفِي) الَّذِي أَسَدَ الدِّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ الْحَرَامِ فِي (مَكَّةَ)

وَمَنْعَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَزُودُوا فَرِيضَةَ الْحَجِّ فِي هَذَا الْمَعَامِ .

وَصَبَّرَتْ الْأُمُّ الْعَظِيمَةُ عَلَى ابْنِهَا - ذَلِكَ الْمُصْلُوبِ فِي

الْعَرَاءِ بِغَيْرِ رَأْسٍ - لَمَّا يَقْرَبُ مِنْ شَهْرِ .. ثُمَّ أَنْزَلَتْهُ ، وَكَفَّتْ

وصَلَّتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ دَفَنَتْهُ .

يَا لها من أم عظيمة رائعة ..

كانت (اسماء) في هذه الفترة قد ناهزت المئة من عُمرِها ..
وما هي إلا أبلم .. ولحقت (اسماء) بابنها .. كريمان يلتقيان
عند خالقيهما ، يكفي أن نذكر (عبد الله بن الزبير) موفقه
يوم معركة (إفريقية) .. عندما واجه جيش المسلمين -
عشرون ألف مقاتل - جيش البربر - مائة ألف وعشرين
ألف مقاتل ..

والناظرُ لطرفي الصراع يومها لابد أن يشفقَ لحالِ
المسلمين لكن (عبد الله بن الزبير) كان ضمن الجيش ..
واستطاع بذكائه أن يدرك سرَّ قُوَّةِ عدوِّه .. لقد وجدَها في
قائدهم - ملك البربر - الذي كانت صيحاته تشعلُ
الحماسَ في قوايته فيستميئون في قتالهم ..

ورغم الموقع الحصين الذي كان يتقوَّ فيه ملك البربر ..
إلا أن شجاعة ابن الزبير جعلته ينسى الموت الذي أمامه
ويتلفع كالسهم بعد أن قتلَ لإخوانه من حوله :

(أخواتي زهراء وأخواتي) ..

وكانه قذيفة انطلقت إلى هدفها .. شق الصفوف واتجه
إلى رأس الملك فأطاح بها .. ثم ألقت إلى الحراس الذين
كانوا حوله فصرعهم جميعاً وانطلقت صيحته : الله أكبر ..

هذا هو (عبد الله بن الزبير) مقاتلاً في سبيل إعلاء شأن
الإسلام أما (ابن الزبير) المؤسس للنقي .. فهو كما قل عنه
ابن عباس رضي الله عنه : (كان قارئاً لكتب الله ، متبعاً
سنة رسوله .. قائماً لله .. صائماً في الواجب من مخافة الله ..
ابن حوارى رسول الله .. وأمه أسماء بنت الصديق وخالته
(عائشة) زوجة رسول الله .. فلا يجهل حقه إلا من أعمه
الله)

عليك رضوان الله يا عبد الله وعلى أمك أسماء ، فقد
كتبنا في كتابي التضحية والصمود والشجاعة : والنقي ..
صفحات لن يطربها التاريخ أبداً !!